

بسمة الجيوكندا

يسرى الأيوبي

انطلق شيطان يبحث عن دور له في الحياة.. كان فتياً مفعماً بالحيوية بعيد الطموح، وقد أجهد نفسه ليجد له مكانة تجعله مرموقاً في عشيرته، فالمرتقى صعب، والمنافسة شديدة، وقد سبقه إلى اعتلاء المناصب الحساسة كثيرون من المتقدمين في السن عليه، من المحنكين ذوي الألقاب اللامعة. فمنذ جدد الشيطان الأكبر العجوز شبابه كثر نسله وتكاثر نشاطهم وقوى نفوذهم.

في يوم من الأيام جمع كبير الشياطين رهطاً من خواص عشيرته وقال لهم:

- إن الإنسان انتصر علينا في معارك ثلاثة: يوم اخترع الأبجدية، ويوم صك النقد، ولما أبدع بسمة الجيوكندا. فإذا كنا نريد أن نقهقه فيديب الانحلال في نسله وننتزع منه إرادته، فعلينا أن نطور أساليبنا فقد عفا عليها الزمن.

وتحنح قليلاً ثم أردف:

- مرت بنا فترة عصيبة، ونزلت بنا ضربة كادت تكون قاضية علينا، حتى ظن البعض أن زماننا ولى وعشيرتنا اندثرت وأصبحت مجرد ذكرى موحشة في بطون التاريخ.. ولكنني لم ألبث أن وجدت دواء عجيباً أعاد إلى الشباب وساضعه في متناول يد من يتفوق منكم تفوقاً ملحوظاً في تخريب ما تبعده عبقرية الإنسان الخيرة وأجعله خليفة من بعدي. ولكن عليكم منذ الآن أن تغيروا من سخنكم وتحرموا كل الحرص على أن لا يظهر لكم ذيل فيكشف أمركم.. إن عشيرتنا قهرت بذلك الذيل الذي لا نستطيع الخلاص منه، والذي أنتهت الله لنا عقوبة ظالمة لا تستحقها لي Finchنا به مع أن هناك من البشر من يفوقنا إثماً وشرأً. وهذا الذيل كما نعلم، لا تنفع معه عملية جراحية لاستئصاله، إذ ينبت من جديد وهو أطول، وأغزر فروة، وأنعم ملمساً، وأكثر توهجاً وحيوية.

انطلق الشياطين من الاجتماع وكل منهم يطمع أن يكون الدواء العجيب من نصيبه فيعيش شاباً للأبد ويخلف الشيطان الأكبر في حكم العشيرة. وهكذا اندفعوا للعمل بحمية ونشاط لم يعهدنا من قبل، وتنافسوا مع بعضهم البعض بضراوة، فمنهم من زور التاريخ، ومن شهر بالمخالصين من بنى الإنسان، ومنهم من جرد الكلمات من مدلولاتها الحقيقة وحرف معناها فيبلل عقول الناس الذين أصبحوا يتحدثون بلغات مختلفة فلا يفهم بعضهم بعضاً ويتشاحنون ويختلفون فلا يستتب بينهم سلام أبداً. ومنهم من زيف النقد وجرد الناس من ثمار عرقهم وجهدهم، واغدق بال مقابل على المشعوذين الهبات.

ولكن أولئك الأعوان فشلوا فشلاً ذريعاً أمام الجمال الذي توحّيه بسمة الجيوكندا، فحيثما حلّت يتحول الكوخ إلى قصر أحلام، وقضبان السجن إلى أوتار قيثاره وعواء الذئب إلى غناء عنديب. كانوا يندسون في الجماعات التي تطالب بالحرية والعدالة والتآخي ويختبئونها بسلام خفية. ولكن ما تكاد تظهر صورة الجيوكندا الجميلة وتتشع في الجو المشحون بالبغضاء ابتسامتها حتى تفتح العيون على ذيولهم المختبئة ويفضح تكرهم ويكشف تأمرهم وتحريضهم على الفتنة فتتحول الأسلحة إلى محاربتهم وطردهم.

سمع الشيطان الفتى بقصص كثيرة عن تجارب أبناء وبنات عشيرته، وما واجهوه من كره حين فشلوا في إخفاء ذيولهم. وذكر من تلك القصص ما جرى لغانية لفت ذيلها الطويل الجميل على رقبتها، فبدأ كفراً ثعلب. وذهبت إلى دار السينما لمشاهدة فيلم كان قد أخرجه أحد عشاقها القدامي وكان مختصاً في حرق المدن وإبادة المدنيين لتجربة سلاح نووي جديد. ولقد جلس خلفها لص أخذ بمداعبتها لسرقة ذلك الفراء الثمين، ولكنه اكتشف أن الفراء مثبت في مكان ما من جسده وأنه ليس فراء بل هو ذيل حقيقي: لقد شدَّه شدة قوية فاوْجعها وجعاً أليماً وقامت تولول هاربة وهو يلحق بها ويصبح "إنه ذيل حقيقي، إنه ذيل حقيقي".

كانت فضيحة شبيهة بفضيحة إيرانجيست ذكرتها الصحف في حينها وأثارت حولها ضجة كبيرة ولكنها ما لبثت أن تلملمت وأصبحت همساً كما أصبحت جلسات تلك سرية.

وذكر قصة محسن كبير جاء بنفسه ليوزع أكياس الدقيق على أمّة من الجياع فشاهد ذيله وهو ينزل من الطائرة طفل صغير فصاح "انظروا إليه! إن له ذيلاً، أقسم أنني شاهدت له ذيلاً"، ولكن الجوع كافر فلم يأبه أحد بتحذير الصغير حتى الذين راودت أنفسهم الشكوك. وكانت عقوبة الطفل أنه حرّم من الغذاء حتى مات جوعاً مثل ملايين الأطفال الذين سبقوه.

كان ذلك المحسن من اختصوا في جر الأنهر من منابعها وأحواضها الطبيعية لتروي عشيرته وقد ترك الخصب على ضفافها قحلاً وخلف شعوبها جياعاً.

أما الشيطان الفتى فكان أسعد حظاً. كان ذيله ضامراً صغيراً لا يكاد يبيّن، وإذا ارتدى ملابس البشر اخنقى تماماً. ومع أن هذا الأمر كان يسبب له إحراجاً في عالم الشياطين ويثير في نفسه غيظاً مكتوماً عندما لا يعامله أبناء جلدته بالاحترام والجدية للذين يرحب بهما بل كفتي صغير لا خبرة له ولم يقترب بعد من الشرور ما يحمل شيطاناً ناضجاً ذا ذيل طويل غزير الفروة أن يعامله معاملة الند، إلا أن الأمر كان مختلفاً في عالم البشر، فلم تواجهه مشكلة إخفاء ذيله. بل إن

شكله كان لطيفاً في ملابس البشر، ولا يبالغ اذا قلنا أنه كان وسيماً، تلاحقه النساء بنظراتهن أينما حل.

* * *

لم يجد الشيطان الفتى راحة البال أبداً وعذبه طموحة وأشواقه دون هوادة. وفي سرّه سخر من كل الأدوار المهللة المفضوحة التي قام بها العديد من أبناء عشيرته فتعرضوا بممارستها إلى أخطار جسيمة. وشعر في قراره نفسه بأنه رغم صغر سنه، أكثر كفاءة من الشياطين الآخرين، ولو لا الظروف اللعينة التي كانت تعاكسه ولم تقصح له المجال ولو لمرة واحدة ليثبت كفاعته لبزهم جميعاً. وكانت أذب أحلامه إلى نفسه هي عندما يتخيّل كيف سيسلمه الشيطان الأكبر العجوز الجائزة التي وعد بها ثم يأخذه من يده ويجلسه على كرسيه. والحق يقال أنه لم يجرؤ أن يكتشف أحداً بأحلامه وإن لسرّه منه. ولم يكن الشياطين الآخرون أكثر تواضعاً منه في أحلامهم ولكن أين سجلاتهم السوداء الحافلة من سجله النظيف تقريباً؟ ومع ذلك فشل الجميع في الحصول على الجائزة ووعد الخلافة من فم الشيطان العجوز الخبيث.

وهكذا راح يطوف أنحاء العالم وهو يبحث عن دور له في الحياة، منقباً عن مهمة مشرفة ترفع قدره في عشيرته وتخلد اسمه بينهم حتى كلت قدماه، ووهن جناحاه، وفلت عزيمته، وكاد اليأس يغله. فليس الأمر هيناً يسيرأ وهو يحتاج إلى عمل مضني وصبر لاقبل له بهما وهو الطموح، العجول، المتوقّد الذكاء، النافذ الصبر.

وذات يوم أمضاه بالتسكع كعادته، قادته قدماه إلى مكان علقت فيه لوحة امرأة، توقف أمامها وحدق فيها. لقد عرفها على الفور. "إذا هذه هي أنت." همس الشيطان الفتى. ومن إطار اللوحة أطلت عليه المرأة بثقة، لم تكن باهرة الجمال، ولكن سحراً لا يقاوم كان ينبعث منها، من تلك النظرة الذكية الحنون، والبسمة المطمئنة النابعة من صفاء السريرة، الموحية بالأمل والخير والجمال في أكمـل صوره، في ذلك الوجه المنسجم القسمات، المتناغم الألوان، المفعم بالحياة. أما اليدان الجميلتان المتشابكتان بلطف فكانتا تشيعان في النفس سلاماً وهدوءاً لا يستطيع المرء مغالبتهما. خفض الشيطان بصره عن عيني الجيوكندا، اللتان تتغلغلان برقة في أعماق الناظر إليهما، ولعن في سرّه تلك الحيرة التي انتابتـه وجعلته صغيراً تافهاً ملعوناً أمام نفسه الحافلة بالشر. ثم عاد ينظر إليها بتحـدٍ وكلما أطل النظر ازداد غيظه واضطرابـه. لقد شاهـد وجهاً آخرـاً في متحـف كثيرة نساء جميلات رسـمـها مشـاهـير العـصـورـ، لكنـها لا تـوحـي بـمشـاعـرـ نـبيلـةـ كالـتي تـوـحـيـهاـ الجـيـوكـنـداـ الأـسـرـةـ بـرـوـعـتـهاـ وـجـمـالـهاـ وـأـصـالـتـهاـ وـبـسـمـتـهاـ.. تـسـاعـلـ كـيـفـ لـاتـنـافـ، كـيـفـ لـايـتـرـقـ إـلـيـهاـ بـعـضـ الشـحـوبـ وـالـعـتـامـ؟ كـيـفـ لـاتـفـاعـلـ فـيـهاـ كـيـمـاوـيـاتـ الـأـصـبـغـةـ،

وتبقى هكذا باهرة الألوان كالليوم الذي ضرّج فيه خالقها وجنتيها بحمرة خفرة، وثوبها بلون قرمزي قان. وتنهد وهو يذكر أنه حتى هذه الساعة لم يتمكن أحد من أبناء عشيرته أن يؤثر فيها أو يشوهها. وبقيت دهراً طويلاً تنشر سحرها في كل من شاهدها، وتتملك نفوس عشاق الجمال وتغمر قلوبهم بالغبطة والسكينة.

ونظر باستغراب إلى الناس من حوله كأنه يراهم للمرة الأولى، وقد انتزعه ضجيجهم من عالمه الذي كان غارقاً فيه. اجتمع هناك خليط غريب من البشر المختلفين في أصولهم ومشاربهم وأهوائهم. مصوروون يحاولون أن يلتقطوا بآلاتهم ذلك القبس الالهي، وخبراء فنون يتمعنون في الجمال ويقيسون النسب فيه، وعلماء وفلاسفة يحاولون أن يكتشفوا سر بسمة الجيوكندا ويتجادلون دون كل فيما بينهم، ومجرد عشاق تتفق قلوبهم دفعة واحدة فيضم الجمال فتظهر مما علق بها من أدران الحياة، وبساطة جاؤوا يطلبون العون من الجيوكندا لتخالصهم من أمراضهم أو فقرهم أو حتى مشاكلهم العائلية. ووقف طلاب مدارس الفنون يستمعون لشرح أسانتهم قبل أن يتفرقوا في كل اتجاه : فمنهم من يرسم نسخة للجيوكندا قد تشبهها في شيء وتنصر عنها في أشياء، وآخرون يعزفون موسيقى مستوحاة من بسمة الجيوكندا، وغيرهم يمثلون مشاهد جيوكندية.. ووجد باعة صور الجيوكندا الفوتوغرافية لهم مكاناً في أروقة المتحف قرب اللوحة الأصلية وأخذوا يروجون لبضاعتهم، وكان هناك مجرد فضوليون، يطلون برؤوسهم ثم يذهبون مسرعين، وغيرهم الكثير.. وفوق هؤلاء وأولئك شمحت الجيوكندا بسمتها السرمدية.

كانت اللوحة بدون غلاف زجاجي، إذ أن رواد المتحف احتجوا يوم وضعها خراء الصيانة خلف زجاج لحمايتها من لمسهم أو مما يعلق في الجو من رطوبة أو أثر لغبار أو دخان أو عثة أو غيرها من كائنات صغيرة متغيرة.. فلقد كان الزجاج يزغل عيونهم ولا يمكنهم من أن يتملوا من جمال اللوحة المجرد. وغير الخبراء وسائلهم لإرضاء الرواد ووضعوا في المتحف مكيف هواء يحتفظ برطوبة نسبية معينة، واستخدمو أجهزة لتقية الهواء، وأضافوا أخيراً جهازاً يحمي اللوحة بأشعة إكس.

ابتسم الشيطان وتملكه شعور مرح لمرأى هذه الجمهرة الصاحبة، وكادت عاطفته الفتية أن تدفعه للمشاركة في هذا المهرجان، وأراد أن يمازح الحضور ببعض الأعبيه، إلا أنه أفلع فجأة عن الأفكار الصبيانية التي راودته، وعادته كآيته عندما التقى عيناه بعيني الجيوكندا. كان من المستحيل عليه أن يصل إليها، أو يلمسها، فضلاً عن أن يمتلكها.. وأحس بالغضب لأنه لسلطان له عليها. فهي خارج دائرة نفوذه، ونفوذ أي من أبناء عشيرته..

وهكذا صار الشيطان الفتى يقف يوماً بعد يوم في الطابور الطويل لعشاق الجيوكندا الذي يزداد طولاً كل صباح جديد، غير عابئ بمشقة الانتظار وعندما

يصل أمام اللوحة يقف حابساً أنفاسه وقد أصابه الإحباط حتى اليأس، قبل أن تدفعه بعيداً الأفواج المتتالية من الناس الذين أمضهم الانتظار واللهفة لرؤية البسمة السحرية. ويوماً بعد يوماً أخذ يكبر في قلبه شعور غريب، مزيج من الكره والعشق، ورغبة التملك والاحتواء.. ولعل الأمر ليس غريباً إلى هذا الحد! فالشيطان كان في ريعان شبابه، وكلنا يعرف كم من الأفكار والمشاعر الغريبة تراود المرء عندما يكون شاباً يافعاً، والشياطين ليسوا استثناء في هذا.

وفي أحد الأيام والشيطان الفتى يقف في الطابور كعادته يعذبه عشهه والانتظار الطويل، وعندما اقترب من حبيبه، حدث أمر لا يصدق. لقد انحل الشيطان وأخذ يتفكك ويختفي بالتدريج إلى أن غاب عن الانتظار تماماً. واندفع الناس المصعوقون من هول المفاجأة هاربين من المتحف، لا يلرون على شيء، يدوس بعضهم بعضاً.

أغلق المتحف لبعض الوقت، وتحدثوا في الصحف طويلاً عما حدث فيه. وأجريت ندوات ومقابلات في الإذاعات والتلفزيونات بتتها الأقمار الاصطناعية. وتحدث بعضهم عن حادثة (فوق طبيعية)، بينما رجح آخرون أن تكون محاولة سرقة، وتضاربت الآراء والناس بين مصدق ومكذب. وعain الخبراء مكان الحادث طويلاً، ولما لم يجدوا شيئاً غير مألف، افتتح المتحف من جديد، مع بيان رسمي مدعوم بشهادة علماء النفس، يؤكّد بأن ما حصل في المتحف في ذلك اليوم عبارة عن هستيريا جماعية، تسمى في علم النفس الاجتماعي "برعب القطيع" سببها إنذار كاذب، وهيأ لها الجو العاطفي المشحون وإرهاق الانتظار، كما قد تكون هناك مسببات أخرى مباشرة وغير مباشرة، كارتفاع درجة الحرارة، والتوترات الاجتماعية وغيرها.. ولم يستبعد البيان دافع السرقة إلا أنه أكد على فشل المحاولة في حال وجود مثل هذا الدافع. وتنقى الناس هذا البيان بارتياح، رغم وجود بعض المشككين المشاكسين الذين يحبون الإشارة، فالعقل البشري المعاصر المبني على المنطق العلمي الصارم لا يرتاح إلا إذا أُعطي لجميع الظواهر التي يصادفها تفسيراً "منطقياً".

ولكن ماذا حدث لشيطاننا؟ ببساطة ذاب حباً.. وهذا تعبير مألف لداعي لشرحه، ولكنه لم يفن، فالشياطين لا يفنى، بل تتحول من حالة إلى حالة، لقد عاد إلى شكل الطاقة الأصلية التي خلق منها. وعندما حلق في الفضاء فوق رؤوس الجموع المذعورة، لم يعبأ بها بل اندفع نحو الأشعة المسلطة على اللوحة واحتل بها تحركه قدرة هائلة لا يقوى على مقاومتها، مبعثها هذا الوجد والألم الذي ينوء قلبه تحت ثقلهما. وكأنما يعبر نفقاً متوجهاً من أشعة إكس، بدا لا نهاية له وهو يركض به في سرعة مجنونة، استسلم الشيطان العاشق لتيار جارف. وخيل إليه أن الزمان امتد وصار لا نهائياً، رغم أن الساعة في الخارج لم تتحقق أن تجتاز جزاً من الثانية. وأخيراً بعد أن حسب أنه طاف الكون في هذا النفق، انفتحت في نهايته

طاقة أخذت تجذبها بقوة لا يقوى على الفكاك منها. وعندما عبرها توقف كل شيء، وأحس بالسلام يغمره. كانت هذه هي الجيوكندا!.. واندفع الشيطان لاهث الأنفاس يتغلغل وينتشر فيها حتى تعشق كل ذرة من ذراتها، من قمة رأسها حتى أخمص قدميها.

* * *

بعد افتتاح المتحف عادت طوابير الناس تصطف من جديد أمام لوحة الجيوكندا، بل إن الطوابير ازدادت طولاً. فالضجة التي أثيرت نجحت في اجذاب مزيد من الناس إلى المكان حتى غص بهم المتحف وفاضوا إلى الشوارع المحيطة به. لم يلاحظ أحد حتى مرور وقت طويل أي تغيير في الجيوكندا فقد كانت بهيجة رائعة كعادتها. ولكن اللوحة أخذت بالتحول التدريجي.. أخذ اللون القرمزي يتحول إلىبني كالح بفعل الأكسدة، والسطح الأملس صارت تملاه الشقوق الصغيرة والتجاعيد.. وتعطل مفعول الأجهزة فإذا بالغبار والدخان يعلوها. وحط عليها الذباب وترك آثاره، وأحدثت العنة فيها تقوباً، وأظلم النور المنبعث من العينين والجبين، وشحبت البسمة الفاتحة ثم أخذت تتلاشى.. وعبثاً حاول خبراء الصيانة أن يعيدوا إلى اللوحة رونقها وبهاءها.. لقد أعيد طلاءها بالبلسم، وشدت التجاعيد على سطحها، وملئت التقوب بكتان مقو لصق على فقاها بالشمع المذاب. ومر رسام قدير بفرشاته عليها بالألوان تتسمج والألوان الأصلية، ولكن التحول والتآكل وانحلال اللون كانت تعيد دورتها كلما تم إصلاحها. ولم يدر أحد السبب. وكانت اللوحة تحير رواد المتحف. أين البسمة؟ في البداية لم تعد تظهر في الصور الفوتografية. وعزا بعضهم هذه الظاهرة إلى عدم كفاءة أجهزة التصوير والنسخ الآلية التي يستخدمنها. ولكن غياب البسمة الممتهنة جداً واضحاً لمشاهدي العيان.. لقد حل محلها بسمة مصطنعة، شبه تكشيرة، وأحياناً تتحول إلى بسمة ساخرة شيطانية.

زار المتحف يوماً شيطان خبير باللوحات، وأمام لوحة الجيوكندا لم تكن الجموع تترافق كعادتها. نظر الشيطان الخبير بإمعان ثم رفع حاجبيه، وتمتم وهو لايرفع عينيه عن اللوحة :

- لقد أجزت عملاً رائعًا متوفقاً تحسد عليه يا بني.. اليوم اختلط الأمر على الناس، نعم لقد اختلط عليهم الأمر !

سأله رجل يقف إلى جانبه:

- عفواً، ماذا قلت؟

- لاشيء، أرجو المغفرة. كنت أحدث نفسي.

* * *

ومنذ ذلك اليوم أخذت الجيوكندا الأخرى تتکاثر نسلاً مزيفاً يغمر الأسواق.